

الأنساق الاجتماعية والنفسية في شعر عبدالله البردوني

الأستاذ الدكتور منتهى طه الحراحشة

الباحثة إسلام عبدالكريم الخزاعلة

أستاذة الأدب والنقد الحديث والمعاصر وعلم السرد والنظرية النقدية

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، المفرق - الأردن

mntaha@aabu.edu.jo

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٦/٩/١٠

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٦/٩/٢٩

الملخص

تبحث هذه القراءة عن الأنساق الاجتماعية والنفسية في شعر عبدالله البردوني، لما تشكله هذه الظاهرة من أهمية في تحوّل موضوعات الشعر وتقنياته، والبحث عن أساليب جديدة تخرج بالشعر من إطار الذاتية ومنطقية الموضوعات إلى مضامين متنوعة. يسعى البحث إلى الكشف عن الأنساق الاجتماعية والنفسية في شعر البردوني.

تضمّن نماذج تطبيقية لشعره ضمن محاور أو عتبات قرائية تُظهر الجوانب المضمونية في شعره مثل: الأنا والآخر، الأفكار والعلاقات الاجتماعية، المعتقدات والتقاليد، والتحوّلات النفسية في شعره الناتجة عن الصراعات المختلفة، والحياة والموت.

الكلمات المفتاحية: الأنساق الاجتماعية والنفسية، المضمّر، الشعر، عبدالله البردوني.

Social and Psychological Structures in Abdullah Al-Baradouni's Poetry

Prof. Dr. Muntaha Taha Al-Harashseh

Researcher Islam Abdel-Karim Al-Khaza'leh

**Professor of Modern and Contemporary Literature and Criticism, Narratology, and Critical Theory
Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts and Humanities, Al-al-Bayt
University Mafrq, Jordan
mntaha@aabu.edu.jo**

Date received: 10/9/2026

Acceptance date: 29/9/2026

Abstract

This study examines the social and psychological structures in the poetry of Abdullah Al-Baradouni, considering the role these structures play in the transformation of poetic themes and techniques. It also seeks to explore new approaches that move poetry beyond the confines of subjectivity and the conventional treatment of themes towards more diverse and varied meanings.

The study aims to identify the social and psychological structures reflected in Al-Baradouni's poetry. It draws on selected examples from his poetic works and examines them through a number of analytical themes that highlight the content and dimensions of his poetry. These include the self and the other, ideas and social relationships, beliefs and traditions, psychological transformations arising from different forms of conflict, and the themes of life and death.

Keywords: Social and Psychological Patterns, Implicit, Poetry: Abdullah Al-Baradouni

المقدمة

ليس النسق الاجتماعي داخل الرواية إلا بيئة كاشفة لجملة من الممارسات الجماعية التي ارتضتها الجماعة عبر تاريخها الطويل، واندجت مع نفسياتها وأصبحت أمراً مقراً به، ومعتزفاً به، فثمة اندماج طبيعي بين النسق الاجتماعي بوصفه ممارسة لجملة من السلوكيات المرضية للجماعة وبين الجانب النفسي الذي يشعر الإنسان من خلاله بالارتياح أو الانزعاج، أو الانتماء أو الانفصال، وهذا موضوع المبحثين القادمين، وهما النسق الاجتماعي، والنسق النفسي.

المبحث الأول: الأنساق الاجتماعية في شعر البردوني

من أكثر الأنساق توغلاً في الأعمال الأدبية لأنها تعبر عن الثقافة التي تنتمي إليها الجماعة، والشاعر في نهاية المطاف يقول شعره بناء على ثقافته المجتمعية التي حصل عليها من تربيتها المنزلية والاجتماعية عبر مسيرة حياته، فالنسق الاجتماعي هو "مجموعة من القيم المتوارية خلف النصوص والخطابات والممارسات"^(١)، وهذا يعود بنا إلى مفهوم الخطية الزمانية التي تفترض أن الجماعة عبر مسيرة حياتها تمر بعدد هائل من التجارب التي تصيغ نظرتها للمحيط على اختلاف أجناسه، وتتووعها وتتافسها وصراعها، والتي تتحول إلى مرجعية بالنسبة للشاعر الذي يستقي مادته من المجتمع، ما يفترض أن هذا النسق في تطور مستمر إذ يعد تطور النسق عاملاً من عوامل التغيير، أو صيرورة جدلية من التحولات المختلفة^(٢).

فالأنساق الاجتماعية ليست نوعاً واحداً ولا شكلاً متحداً، بل هي جملة من العناصر، وهذه العناصر تخضع لقوانين تركيبية تتعدى دورها من حيث هي روابط تراكمية تشد أجزاء الكيان الأدبي بعضه إلى بعض، فهي تضيف على الكل خصائص مغايرة لخصائص العناصر التي يتألف منها البعض^(٣)، وهذا ما يجعل مهمة النقد الثقافي في الكشف عن الأنساق المضمرّة عملية مضنية نوعاً ما ولا سيما في الشعر الذي يقوم على المجاز، إلا أن النظرة الثقافية التي تعد "ممارسة أو فعالية تتوفر على درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء كانت مادية أو فكرية، ويعنى النص هنا كل ممارسة قولاً أو فعلاً تولد معنى أو دلالة"^(٤) بالاعتماد على المرجعية الاجتماعية التي أنتجت النصين الأدبي والنقدي.

ويعد الشاعر البردوني من أكثر الشعراء الذين عبّروا عن الجماعة، فهو يحمل هموم الإنسان على اختلافها وكثيرتها، وعبر عن مشاكل المجتمع المتمثلة في الكينونة الذاتية (الأنا) وما يقابلها (الآخر) بجملة من المعتقدات والتقاليد، والأفكار والخيالات.

المطلب الأول: الأنا والآخر

الأنا والآخر مفهومان متلازمان بالضرورة، وتلازمهما أقلق المجتمع الذي حاول بشكل دؤوب في التوازن بينهما حيث يتمتع على أي منهما أن يلغي الثاني أو يعيب به، فكل منهما استقلالية ثقافية واجتماعية ووجودية، داخل البقعة الجغرافية الواحدة، وخارجها، فإن الإنسان هو الإنسان على اختلاف جنسه ولونه؛ لكن الأدب لا يكثر كثيرا لهذا التوازن، بل نجده يعبر عن نفسه -غالبا- خارج هذه المنظومة ليعبر عن الأنا المستلبة، والآخر المنتهك، وربما الأنا المتغطرة، والآخر المنتهك؛ لأن وظيفة الأدب الأساسية هي التعبير عن المجتمع ومعالجة همومه وقضاياها؛ لأن الأدب فعالية اجتماعية، فهو تعبير عن التجربة الإنسانية التي تتغير على الدوام من عصر لعصر^(٥).

وأبسط تعريف للأنا/ الذات/ الهوية هو "أن يكون الشيء هو عين نفسه"^(٦)، أما الآخر فهو "كل ما يختلف عن الذات، فهو مفهوم غامض يختلف باختلاف الذات التي تحدده، إذ أن الآخر بالنسبة لشخص ما ليس بالضرورة آخر بالنسبة للشخص الثاني"^(٧)، ما يجعل قضية تحديد مفهوم الأنا والآخر عموما -دون ربطها بالنص- قضية فلسفية واسعة الحدود والمعالم، وتجتهد الباحثة لحصر هذين المفهومين من خلال الأبيات الشعرية التي ستتمثلها من ديوان البردوني لربط هذا المفهوم بالنص مباشرة.

إن قضايا الأنا والآخر متعددة في شعر البردوني، إذ احتوى شعره على: الأنا النفسية، والعاشقة، والحزينة، والسعيدة، والمنكسرة والضائعة... ولكل نوع من هذه الأنواع محاولات ثقافية عبّر عن خلالها البردوني عن فلسفته الخاصة اتجاهها، واستعمل ضمائر دالة على كل منها، فالأنا النفسية تظهر في أبيات كثيرة تعبيرا عن الحالة الشعورية الفردية وهي حالة بين صعود وهبوط، حزن وفرح، سخط ورضا... نسمع أنين الأنا النفسية العاشقة في هذه الأبيات:

وألاقيك في ضميري كما لاقى الـ	فم المـسـتـهـام أشـهـى مـقـبـل
في دمي من هواك حمى البراك	ين العواتي وألف دنيا تزلزل
وبقلبي إليك ألف عتاب	وحوار وحين ألقاك أخجل

أنا أهواك للجمال وللإلـ
هـام للفن للحوار المعسل
والغرام الطهور أذكى معاني
الحب. أسمى ما في الوجود وأنبـل

تترف الأنا العاشقة عند البردوني بكل قوتها جاعلة من الآخر/ الحبيبة محورا ومركزا، يستحضرها في ضميره العاشق، ويعبر عن البراكين الملتهبة في داخله لهذا الحب، إنها لحظة صوفية من الوجد والهيام والذوبان في الآخر الذي يسمى (حبيبة).

ظهرت الأنا النفسية العاشقة هنا على شكل تعبير عن نيران العاشق التي في القلب، فالقصيدة اسمها (نار وقلب) والنار في هذه القصيدة هي: (الحب)، لا يتورع البردوني من التعبير عن حالة الحب التي يعانها بوصفها نارا، ويشيع ذلك رغم تحذيرات الجماعة المحافظة، فالنسق المعلن هنا يتطابق مع النسق المضمّر في التعبير المباشر عن حالة الحب/النار التي يعاني منها الشاعر مطلقا أناته وزفراته دون أن يكثرث لمحاذاير المجتمع التي تمنع على الرجل أن يعبر عن مشاعر الحب لحبيبتة، إذ يتورع الرجال في المجتمعات المحافظة عن التعبير عن الحب للمرأة، أو أن يعبروا عن حالة الشوق، أو أن يربطوا بين الحب والنار والعذاب، وكان الرجل صخرة لا تتأثر ولا تتحرك مشاعرها ولا تتفعل أمام المحبوبة، ففي المجتمعات المنزوية على نفسها يتحول التعبير عن الحب جريمة، أو مخجلا على أقل تقدير، وممارسة الحب جريمة^(٨).

ولا تعبر الأنا عن نفسها بهذا الوضوح في كل شعر البردوني، إذ نراه يتوارى أحيانا وراء ضمير الغائب، وكأنه يسرد رواية براوٍ داخلي ويراقب عن كثب ما يحصل، فالأنا الحزينة عنده والمنكسرة توارت خلف المفردات وكأنها متعبة من الحزن والانكسار وتبغى الانسحاب:

قلبه المستهام ظمآن عاني
يحتسي الوهم من كؤوس الأماني
قلبه ظامئ إليك فصبي
فيه عطر الهوى وظل التداني
واذكري قلبه الحبيس المعنى
واملئي الكأس من رحيق الحنان
إنه عاشق وأنت هواه
إنه فيك ذائب الروح فاني^(٩)

يعبر عن مشاعره الحزينة والدافئة لكنه لا يعترف بانكساره، إنه يخترع (أحدا ما) ثم يجعله حزينا: ظمأنا، مستهاما، موهوما، يعيش في الأمان، ظمأنا، يعاني الفراق المؤلم، حبيسا، معنى، يفتقر إلى الحنان، عاشقا، روحه ذائبة...

الأنا مضمرة في هذا الخطاب الدافئ الذي يحمل عتابا وانكسارا واضحين، قد لا يكون السبب فيه هي حدود المجتمع الثقافية التي لا يجوز تجاوزها على قدر ما تكون حدود الأنا نفسها التي تأبى الذل والهوان والاعتراف بالانكسار، وهذه طبيعة الإنسان التي إن خالفها- وقد خالفها الشاعر كثيرا- ليس إلا ليعبر عن هول ما يعاني رافعا راية استسلامه لذلك الحب/ الآخر.

وهذا ليسا أسلوبا عند البردوني على قدر ما هو تنوع شعري وتعبيري ثقافي، إذ نجد هذا الشاعر المتواري في أماكن أخرى يصدق بألمه وانكساره وضياعه، يقول البردوني:

لا تسل عني ولا عن ألمي	فلقد جل الأسى عن كلي
وتعايا صوتي المجروح في	عنفوان الألم المضطرم
ودمي يصرخ في جسمي كما	تصرخ الثكلى بيت المأتم
وأراني آه مهزوم المنى	وأنا أحنو على المنهزم ^(١٠)

لوحة من الإحباط والانكسار، والشكوى يبثها الشاعر بضمير المتكلم وبشكل صريح، هو يتحدث عن عالمه الداخلي بكل وضوح، ويخاطب به جمهوره أو مجتمعه، كي يعرفوا حجم الأنا المنكسرة التي يعاني منها، إن انكساره لم يضغط على جانبه الاجتماعي والسلوكي بالانسحاب من المجتمع وقضاياها التي يؤمن بها، رغم قوله في التعبير عن أنه المنكسرة والحائرة والضائعة بقوله:

هل أنا من هنا؟ وهل لي مكان؟	أنا من لا هنا، ومن لا مكان
كم إلى كم أمشي، ودربي ظنون	ومداه قاصٍ عن الوهم دان؟
وسأبقى أسير في غير درب	من ترابٍ، دربي ظنون الأمان ^(١١)

أما الآخر الذي يفهم ما يقوله البردوني ويعبر عنه فهو آخر مثقف، يعرف ما يقول، ويفهم ما يسمع؛ لذلك يتوجه إليه البردوني مباشرة بخطاب رقيق قائلاً^(١٢):

لا تقل ما دمع فني	لا تسل ما شجؤ لحني
منك أبكي وأغني	ك فمما يؤذيك مني؟
سمني إن شئت نوا	حاً وإن شئت مغني
فأنا حيناً أعزي	ك وأحياناً أهني
لك من حزني الأغاري	د ومن قلبي التمني
فاسمع ما شئت واتركني	ي كما شئت أغني

يكشف النسق المضمّر في هذه الأبيات عن ثقافة اجتماعية راقية في التعامل مع الآخر المخالف، أو لنقل الناقد وليس المخالف، وأكثر ما يميز هذه الأبيات أنها تعبر عن نسق التصالح مع الذات أمام الآخر الذي يريد الانتقال، وهذا الآخر يهدم ولا يبني، وهو يهاجم لظنه أن الآخر/ الشاعر تهديد مباشر لأناه الداخلية "فالثقافة المهيمنة في عالم اليوم لا تنفك تؤكد أن الآخر هو تهديد لنا، وأن من لا نعرفهم من نظرائنا البشر هم خطر داهم علينا!"^(١٣)، والبردوني لا يعاني من هذه المسألة فهو لا يخاف الآخر، ويتعامل مع نقده بكل كفاءة، فهو قادر على تحويل حزنه الداخلي الذي يعتل في أناه الداخلية إلى تغريد تسر هذا الناقد، ويهديه معها أمنياته القلبية، وهذا إغلاق في التعامل مع الآخر غير الواضح، أو الممتعظ أن ينتهي الحديث معه بالقول: (أتمنى لك التوفيق الدائم).

وثمة صورة مركبة للآخر الذي يعد مرآة الأنا دون أن يلغي البردوني ذلك الآخر، بل يحنطه أمامه ويكلمه عن الحديث ويجعله سبب المشاعر وتضخم الأنا المشتعلة عنده، وسبب ذلك أنه صريح جداً في تعبيره عن حبه:

يا ابنة الحسن والجمال المدلل أنت أحلى من الجمال وأجمل

وكان الحياة فيك ابتسام وكان الخلود فيك ممثل

كل حرف من لفظك الحلو فردوس ندي وسلسبيل مسلسل

كلما قلت رف من فمك الفجر وغنى الربيع بالعطر واخضل

إن الآخر/ المعشوقة تجلس في مركز السلطة المهيمنة على الشاعر الذي يجلس في الهامش، لكنه لا يعاني من صراع الوجود كالعادة، فلا نراه يقاتل لاحتلال المركز، بل نراه يعبر عن ذاته العاشقة مهمشا أنه، فعلماء الاجتماع يفرقون بين الأنا والذات في هذا السياق ف"الكلام على الذات ليس كالكلام على الأنا"^(١٤)، فإن كانت الأنا مركز الإنسان وجوهره المتعالي، فإن الذات مجموعة الصفات المتناقضة التي تكون هذا الإنسان.

والشاعر يوضح أنه، ويخفف من ذاتيته من خلال تعظيم الآخر/ الأنثى، وجعله مركزا رئيسا وإعطائه صك البقاء هناك في نقطة الجذب الحارقة كالضوء والفراشة (الحسن، الجمال، الدلال، الحلا، الحياة، الابتسام، الخلود، الصوت الرقيق، الفردوس، الندي، السلسبيل، الفجر، الرفرفة، الغناء، الربيع، الماء والاختلال) هذه صفات المركز بلا منازع، وهي صفات يأبى المجتمع أن يظهرها، لا يجوز للمتغزل أن يفصح بها أمام الجماعة، لذلك لم يقل الشاعر: يا ابنة فلان، أو يا فلانة، إنه يخاف من ثورة المجتمع ضده، والمجتمع هو المرجعية في القصيدة الثقافية، فعلى الرغم من حداثة شعر البردوني إلا أنه سار على خطا القصيدة القديمة في الإسرار باسم المحبوبة، بل فاقهم سرية فهو لم يخترع اسما ويضعه في القصيدة كما فعل الشعراء القدامى، وهذا سببه أن البردوني ينطلق في بناء قصيدته من المرجعية الثقافية الاجتماعية التي لا يقدمها للقارئ بصورتها المباشرة^(١٥).

ولا تكون صورة الآخر في النسق المضمّر في شعر البردوني مرتبطة في الأنا بطريقة المقابلة المتعبة والمضنية والحزينة والمنكسرة، فقد تأتي بإحساس الاندماج المشترك، إن الآخر يتموضع أحيانا في شعره على شكل مدينة جميلة يحملها معه في سفره:

طلبت فطور اثنين: قالوا بأنني وحيد.. فقلت اثنين، إن معي (صنعا)^(١٦)

إن صنعاء الجميلة لا تبقى مكانها بل تسافر مع الشاعر إلى الشام، ويقاسمها طعامه، إنها محبوبته الأولى، فالآخر هنا الوطن، وبالمقابل يضع نفسه أمامه فنيا وجمالياً، إنه يرى نفسه من خلال التعبير عن حبه لوطنه رامزا له بمدينة صنعاء.

إن ثقة الشاعر بصنعاء كحبه لها لا حدود لهما، إنه لا يتركها وهي نائمة تعاني القهر والحرمان، يجعلها آخر ممتدا منه هو ويحاورها ويحدثها وكأنها ابنته الغالية:

كم تحلمين ولا تـرـين وتـعـبـين على الـدـهور

ما زال يـخـذلك الزـمـان فتـبـزغين لكـي تغـوري

يا شمس صنعاء الكسول أما بدا لك أن تدوري^(١٧)

فالآخر في المثاليين السابقين هي المدينة التي ترمز للانتماء الوطني، فهو يقصد اليمن كله، هذا اليمن الذي يحمله الشاعر في وجدانه وروحه، ويخشى عليه من الآخر المفترس، الذي يأتي غازيا ليحول خيرات البلاد لأهله، وأهلها عبيداً له، يمضون إليه كالإعصار الذي لا يترك أمامه شيئاً إلا دمره:

وتـمـدُّ تـلمـسُ مـنْ هـنـاك ذوائبَ الـيـمـنِ السـعـيدِ

ومضى الغـلـوجُ إلـيـه كـا لإعصارٍ كالسَّيلِ الشَّدِيدِ

وبرغمـه أدمـوا إلـى (صنعاء) بيداً بعدَ بيدِ

فتـثاءبـت أبوابـهـا لزحوفِ (أبرهة) الجـديـدِ

يصف الشاعر اليمن بأنه سعيد بخيراته الكثيرة وبأهله؛ ولكن الآخر/ الغازي/ العلوج، لا يتركونه وشأنه، فقد هجموا على اليمن كالإعصار المدمر يدمرون الخيرات ويدمرون الإنسان أمامهم، إن صورة الآخر هنا صورة مأساوية تشير إلى الرفض والاستتكار، والاستحقار لهذا الغازي الذي يفكر بدخول بلد ليست بلاده فقط لينهب خيراتها.

يظهر للباحثة أن الأنا والآخر من أبرز القضايا الاجتماعية في شعر البردوني فقد ظهرها بشكل لافت في كل قصائده تقريبا، وعبر من خلال هذه الثنائية الضدية التي تظهر أحيانا دون زعي من الشاعر متلازمة مع الدفقة الشعورية بأشكال متوائمة فيكون الأنا مكمل للآخر، وفي قصائد ثانية قد يظهر الآخر معاديا استغلاليا، ومعايير الأنا والآخر هي معايير اجتماعية استقاها الشاعر من تربيته الاجتماعية ومن قوانين مجتمعه المحيطة به ولا سيما على مستوى الحب والعلاقة مع الأنثى، أو الانتماء والعلاقة مع المدينة، أو الانتماء والعلاقة مع المحتل.

المطلب الثاني: الأفكار والعلاقات

يعيش الإنسان جملة كبيرة من الأفكار التي تدور في خلد، وفي الوقت نفسه يحاول أن يبني علاقات كثيرة بمحيطه الذي يعيش فيه فالجماعة وحياتها الثقافية تفرض على الإنسان أن يفعل ذلك كي يحقق التوازن النفسي للأنا الداخلية، التي تحدد أبعادها المعرفية والثقافية والاجتماعية من خلال التفاعل بين الجماعات، كما يؤكد ذلك شتراوس الذي يرى أن الهوية أو الأنا هي بؤرة افتراضية نلجأ إليها لتفسير بعض الأفكار والمعتقدات لأنها حاضنة للمعنى الاجتماعي الذي انعكس في داخلها^(١٨)، فالمجتمع جملة شبكات علائقية بين أفراد، وفساد هذه الشبكة كفيل بالقضاء على الجماعة، فتخلخل الشبكة الاجتماعية والعلاقات العامة سيودي بالمجتمع إلى انهيار في بنيته الثقافية الحضارية^(١٩)، إن البردوني في سؤال الفكر والعلاقات التعاملية نجده ينتفض للتعبير عن أفكاره، وعن إجابات تجذب الآخر، فهو لا يريد أن يخسر الآخر، بل يحاول بناء العلاقات الاجتماعية والحفاظ عليها، يقول البردوني^(٢٠):

لا تسـلني ما طـواني عنك في أقصى الزوايا

ها أنا وحـدي وألقا كـ هنا بين الحنايا

ها هنا حيث الأقيـــــ
ك طباعاً وسجـا

حيث تهوي قطع الظلـــــ
م كأشلاء الضحـا

وتطل الوحشة الخـــــ
سا كأجفان المنايا

والدجى ينساب في الصمت
كأطياف الخطايا

يضع البردوني بينه وبين الآخر (غير معروف الهوية) قطعاً من الظلام والنظرات السوداوية التي يراها في الواقع، وكأن هذا الدمار جعله ينسحب عن الآخر وينزوي، يفضل غربته الذاتية على التواصل مع الآخر إن كان المحيط قائماً ومعتماً، وضاعطاً على نفسيته النرجسية والحساسة، إنه يمارس على المجتمع من خلال الآخر الذي يستفدّه نوعاً من تحدي الانسحاب والمواجهة عبر المراوغة المستفزة للآخر بالانسحاب والعودة والتبرير والتوضيح، وهذه لغة التحدي التي تخفي في نسقها المضمّر رغبة جارفة في تغيير المحيط/المجتمع الذي وصفه بأنه: (الظلم، أشلاء، الدجى، الحنايا، أطياف، الخطايا) والمقابلة الحوارية بين الضمير المتكلم، والضمير المخاطب، إن هذه المعمارية الفنية الجمالية في القصيدة تبني سردية خاصة في العلاقة بين الأنا والآخر على أساس الأنساق الاجتماعية المحيطة بكليهما، والتي تعيد صياغة الإنسان ووعيه حيث تتماها الحدود بينها في بوتقة الجماعة "لتشكل بذلك شخصية أوسع وتلك الشخصية هي نحن" (٢١).

والبردوني في كثير من قصائده يقدم فكرته حول قضايا متعددة، ويجعل من القصيدة سبيلاً لبث وجهة النظر؛ لكن بحذر؛ لأن الإنسان المشرقي ابن مجتمعه وهو محكوم بقوانين الجماعة، ومن قصائده التي عبر عنها عن فكرة دارت في خلده وتدل على فلسفة اجتماعية مخاطبته للشباب مع إيمانه المطلق بالنصر والمقدرة على النهوض، قوله:

وإن الفنا في سبيل العلا
خلود، شباب البقا سـرمدي

وما الحرُّ إلا المُضحى الذي إذا آن يـوم الفـدا يفتـدي

وحسب الفتى شرفاً أنه يعادي على المجد أو يعتدي^(٢٢)

نلاحظ كيف عبر عن فكرته في الهمة والنهوض، والشرف العالي الذي لا يكون إلا في الأعمال العالية والشريفة.

وللبردوني علاقات مع السلطة لكنها غير مستقرة، يخاطبهم قائلاً:

يا ذوي التَّيجان، يا أهل الرئاسة الملايين لكم، تَفْنَى حماسة

والأُماني بجماكم تحتمي وإليكم تنتمي أُمُّ القداسة

وجموع الشعب لاقت فيكم قادة النصر، وأبطال السياسة

كان هذا ما روى إعلامكم هل ترى هذا الجماهير المُداسة؟^(٢٣)

في هذا الخطاب يتحول النسق المضمّر الذي من المفترض أنه يجب أن يحافظ على علاقة رحيمة بين المثقف والسلطة، يخرج النسق المضمّر الرفض للسلطة السياسية على العلن معبرا عن علاقة البردوني بالسلطة، فتكون العلاقة على أوج توترها بين المثقف والسلطة ويأخذ القلم المثقف دوره في التغيير في أنه هو الذي يهيئ الأفكار لنسف النظام الاستبدادي، ووضع مبادئ للتعاقد الاجتماعي وشرعية للنظام السياسي، وجعل الأمة أو الشعب أو الإنسان الحر هو مصدر السلطات^(٢٤).

فهؤلاء أصحاب الرئاسة، ما موقعهم في قلوب الشعب؟ وهذا سؤال حساس في المجتمعات العربية التي تقول في أي مشهد سياسي (الحيطان ليها أدان) هذه الجملة كافية لإغلاق أي حوار سياسي ذاهب إلى إبراز الرأي بالسلطة الحاكمة، لكن البردوني هنا قفز عن هذا التابو، وأخرج المضمّر إلى العلن:

جَرَبُوا في الشعب شعبيّتكم واخرجوا يوماً بلا أقوى حراسة

إن هذا خير مقياسٍ لكم وعليه صحة الدعوى مُقاسةً
جَرِّبُوا كي تستبينوا مرّةً أين حكم الشعب من سوق النخاسة؟
غاية التغيير أن تستبدلوا مكتباً، أو (ماسّةً) أخرى بماسّة
أن تصافوا من يعادي شعبكم مثل راجي الطهر في عين النجاسة^(٢٥)

يشكك البردوني في العلاقة بينه وبين السلطة، وبين السلطة وبين الشعب عموماً، هو يرى أن السلطة الحاكمة غير شعبية ولا تعبر عن آمال الشعب وهي عاجزة على الاختلاط مع الشعب؛ لأن هذه السلطة ساوت بين حكم الشعب وحكم سوق النخاسة المعد للبيع والشراء.

ولا يلبث أن يعلنها صراحة، صرخة في وجه الرئيس أحمد حميد الدين الذي أنشأ عيداً وطنياً لليمن يحتفلون فيه؛ لكن البردوني يسميه (عيد الجلوس):

يا ويح شرذمة المظالم عندما تطوى ستائرهما ويفضحها الغد!
وغداً سيدي المجد أنا أمةٌ يمنيةٌ شما، وشعب أمجد
وستعرف الدنيا وتعرف أنه شعب على سحق الطفلة معود
فاقبل رعاك الله تهنتي وإن صرخ النشيد وضج فيه المنشد
واعذر إذا صبغ التهد نغمتي بالجرح فالمصدر قد يتهد^(٢٦)

يخرج البردوني عن اللغة السياسية والدبلوماسية ليغوص في النسق المضمّر الداخلي لخطاب السلطة ويعبر عن رغبة الجماعة في التغيير السياسي، والتطوير والتقدم.

ولو تعمقنا في النسق الثقافي في هذا المشهد من العلاقة مع السلطة -وهي علاقة فكرية في الدرجة الأولى- لوجدنا أن الشاعر ينتمي للمجتمع وللشعب وليس للسلطة، هو ينتمي انتماء كاملاً للجماعة على وضعها القائم وفي علاقته مع السلطة لا يريد أن يخرج عن هذا النسق الجمعي كي لا يشعر بالنشوز عنه والاختلاف معه^(٢٧).

وتعد الحكمة في شعر البردوني وجهاً من وجوه الأفكار والعلاقات لأن الحكمة "كل كلمة وعظمتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة"^(٢٨)، يقول البردوني:

ماذا يريد المرء ما يشفيه	يحسوا ^(٢٩) الدنيا و لا يرويه
ويسير في نور الحياة وقلبه	ينساب بين ضلالة والنتيه
والمرء لا تشقيه إلا نفسه	حاشى الحياة بأنها تشقيه
ما أجهل الإنسان يضني بعضه	بعضا و يشكو كل ما يضنيه
ويظن أن عدوه في غيره	وعدوه يمسي و يضحى فيه ^(٣٠)

يقدم البردوني في هذه الأبيات فكرته وتجربته، ويظهر حكمة بالغة في فهم المجتمع والزمان الذي يعيش فيه، وهو بذلك ينبه المجتمع إلى هذه المعاني ويطلب منهم أن يتأملوا وينتبهوا، ويجعل من النفس مركز العلاقات مع المجتمع، فالسعيد سعيد من ذاته، والشقي شقي من ذاته، فلا يمكن لك أن تشفى إلا من ذاتك ومن نفسك إن وضعتها قبالة المجتمع بكل قوانينه ستكتشف ذاتك الحقيقية، فمع ظهور نظرة الغير، ينكشف لي وجودي^(٣١) الحقيقي، وباكتشاف هذا الوجود تنبني جملة العلاقات وتترسخ الحكمة بوصفها فكرة أو عقيدة مستخلصة من جملة التجارب الاجتماعية.

يظهر أن الأفكار والعلاقات بين البردوني وبين الناس المحيطين على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأعرافهم لها مدلولات اجتماعية عميقة في الشخصية اليمنية عموماً وفي شخصية البردوني خصوصاً، فهو حساس في تعامله مع القضايا الشخصية، ولا يساوم في الأفكار والمعتقدات الوطنية والسياسية، فالوطن وعلاقته معه هب علاقة مقدسة وقد انعكس هذا على شعره عموماً.

المطلب الثالث: المعتقدات والتقاليد

ينظر الأدب إلى الشعر على أنه رسالة قبل أن يكون مجالا للمتعة وللفن، وتوظيف الشعر في قضايا المعتقدات والتقاليد على المستويين الشخصي والجمعي يعد من المواضيع المنتشرة في الشعر عبر العصور، ولعل أبرز ما وظف له الشعر في هذا المجال هو التشهير بالقبيح السيئ (كال كفر، والفسوق، ومثالب الأخلاق كالبلبل والغدر والخيانة...)، وتعزيز الجميل بكل أشكاله، "إذ يقوم الحضور المجتمعي الملتزم على أساس دفع القبح، الذي يحل بالمجتمع، والقيام بمعالجته سواء أصدر ذلك القبح من المؤسسة الحاكمة أم من الطبقات المجتمعية"^(٣٢)، وهذا يقتضي أن القصيدة التي تمس نسق المعتقدات والتقاليد في الجماعة هي قصيدة يجب أن تكون حذرة في الطرح؛ لأن هذه المعتقدات عمرها سنوات طويلة وتراكت وتغييرها صعب جداً.

وفي شعر البردوني أنساق كثيرة من هذا النوع عبرت عن المعتقدات الشخصية والجمعية، من أهمها مدحه للنبي عليه الصلاة والسلام في قوله:

حي ميلاد الهدى عاماً فعاماً واملأ الدنيا نشيداً مستهاماً

وامض يا شعر إلى الماضي إلى ملتقى الوحي وذبح فيه احتراماً

واحمل الذكرى من الماضي كما يحمل القلب أمانيه الجساما

يفصح النسق المضمّر في هذه الأبيات أن الشاعر يرب بالاحتفال بالمولد النبوي الذي يتكرر كل سنة كما يقول وهذا يدل على تمسك الجماعة بالأعياد الدينية، والاحتفالات التي لها طابع ديني، ويربط

هذا بالتاريخ فالتاريخ هنا باستحضار شخصية لها تأثيرها الوجداني على الناس، ما يجعل الخطاب أكثر تأثيراً.

البردوني على اتصال وثيق مع عدو الأمس، وهو لا يأمن جانبه ويفكر في الهيمنة والقوة والضعف ويتساءل لماذا عدو الأمس الضعيف أصبح قويا وجاء لسلبنا حريتنا وكرامتنا؟:

قيل جاءوا، وغيرهم جاء حيناً جد شيء... فما الذي جد فينا؟

السراب القديم، صار جديداً الخواء البديد، أمسى متيناً

الجلود التي علينا طلاء كاذب يركب الفراغ الحزينا^(٣٣)

إن البردوني يشكك بجدوى الاحتلال فقد مرَّ على البلاد احتلالات كثيرة لكنهم لم يبقوا وبقي الإنسان اليمني، وهو يعتقد أن المحتل قوى نفسه وغير جلده وجاء بطريقة مختلفة، فما الذي تغير فينا نحن أيضاً؟ ففي أبياته جلد للذات في أنها لم تتطور لبناء نفسها، فهو يعتقد أن الشعب بقي على ما هو بينما المحتل طوّر نفسه.

ويعتقد البردوني بالإنسان ويؤمن به ويجعله محور شعره في قصائد كثيرة، فالإنسان في شعر البردوني هو الإنسان الحر المحب لوطنه، وهو العامل المجد الذي لا يضيع وقته، وهو الشباب المجد الذي يحمل هم النهوض ببلاده وأمته:

ما أتعبنا يا أخث، وما أقوى وأمرّ عدا الإنسان

أدري أنا لم نتغير مهما عصفروا لون الطغيان

أترى القرصان وإن لبسوا أترى الأشكال سوى القرصان؟^(٣٤)

في الأبيات السابقة إيمان بقوة الإنسان وحريته، وإعلان وقوف في وجه الطغاة وأعداء الإنسانية،
فإيمان البردوني بالإنسان وطاقاته هو إيمان مطلق.

إن البردوني يؤمن بالشعب وقوته في التغيير، هو يعتقد أن التغيير الحقيقي لا يأتي من الحاكم بل
يأتي من الشعب الذي سينهض عاجلاً أم آجلاً:

لشعب يومٌ تستثير جراحه فيه ويقذف بالرقود المرقدُ

ولقد تراه في السكينة... إنما خلف السكينة غضبة وتمردُ

تحت الرماد شرارة مشبوبةٌ ومن الشرارة شعلةٌ وتوقدُ^(٣٥)

فالإيمان الذي ينبع من عقيدة صادقة بالشعب اليمني هو إيمان بقدرة هذا الشعب على التغيير،
وعلى الظفر والانتصار على مغتصبي السلطة من أبناء اليمن من عاث في الأرض فساداً.

يحتل الوطن قلب العقيدة وروحها عند البردوني ويحمل همه في كل أشعاره، والجميل أن الردوني
يتقن لغة التعبير عن هذه العقيدة التي تنبع من ثقته المطلقة بوطنه وأهله وناسه رغم ما يعانيه اليمن من
أوجاع ومآسٍ:

لهذا عنك يا وطني نعبُ الأخطرَ الأقسى

إليك ومنك غايئنا أقصراً كنت أم رمسا

أكنت عشية الماضي أم الأمس الذي أمسى

قلوبُ القلب أنت ودع أيمناً كنت أم نحساً^(٣٦)

ومن المعتقدات المهمة التي آمن بها البردوني، وظهرت في شعره بشكل واضح مسألة (الثقة بالنصر)، فالبردوني على ثقة تامة بالنصر وأن هذا النصر يكون عبر تفعيل دور الشباب:

وهيهات هيهات يبقى الشباب جريح الإبا أو حبيس اليد

سيحي الشباب ويحيى الحمى ويفنى عداة الغد الأسعدي

ويبني بكفيه عهداً جديداً سنياً ومسبقاً عسجدي

وعصرًا من النور عدل اللواء ظهور المنى أنف المقصد^(٣٧)

لو كان الشاعر لا يمثل إلا نفسه في هذه الأبيات لاستطعنا أن نقرأ في النسق المضمير للأبيات روحاً مفعمة بالثقة بالنصر، والاعتقاد الجازم بأفضلية الغد المشرق مع العمل، فالشعور الجمعي الذي ترسخ في ذهنية البردوني ليظهر على شكل نسق مضمير هو شعور الثقة بالشباب وبالنصر، والحالة الثقافية هنا أن الفرد "ينضوي تحت أدلجة ما لفئة أو طبقة فيكتسب منها ويتأثر بها"^(٣٨)، إلى أن تتحول السلوكيات الملتقطة من الجماعة إلى عادات وتقاليد راسخة مهيمنة على حياة الفرد والمجتمع بل تتحول مع مرور الوقت إلى ثقافة داخلية للمجتمع تتعلق بما هو غريزي وبيولوجي وفطري^(٣٩).

المبحث الثاني: الأنساق النفسية في شعر البردوني

يعبر البردوني عن حالاته النفسية ولواعج شعوره المتأجج وهو ينعكس إلى مجتمعه وذاته ويقارن بين وضعه الشخصي ووضع وطنه والعالم المجاور الذي يتمتع بالأمان والاستقرار، فتظهر الصراعات النفسية، فيتحول الصراع في داخله إلى محرك للشعر، ويأخذ من ثيمة الموت والحياة سبيلاً للعبور إلى الشعور النفسي والشعور الجمعي، إن البردوني في تحولاته النفسية يشخص أمام القارئ بكل شفافية روحية، ووضوح لا مثيل له متحدياً اللغة الشعرية التي تتوارى وراء الأنساق.

المطلب الأول: التحولات النفسية الناتجة عن الصراعات في شعر البردوني

يشكل الصراع باختلاف مستوياته أهم المحركات الشرعية لدى الشعراء، فالشاعر بإحساسه المرهف يدرك علاقات الأشياء ويكشف مسير الأحداث، التي يتم من خلالها إخضاع فئة اجتماعية لفئة أخرى^(٤٠)، لأهداف ومكاسب عديدة تؤدي إلى ولادة أول بذرة من بذور الصراع، ومع حالة الضعف التي يعاني منها المثقف العربي في بعض البلدان يشعر المثقف/الشاعر بجملة من الصراعات والتحولات النفسية.

والصراع عند البردوني عادة أتقنها على المستوى النفسي الداخلي وعلى المستوى الاجتماعي المحيط وعلى المستوى الدوالي العام، بل يخوض صراعات لا يعلم ملامحها يعبر البردوني عن حالته النفسية ضد الخطر المحدق والعدو المتأهب الذي لا تظهر ملامحه تماماً:

أنا ضد تيار هذا الركام	أعووم إلى شاطئ من شعل
وأدري، وأدري بأنني إليه	أخوض دمي، والردى والوحل
ولكنني لا أمل العناد	لأن التماوت موت أمل
وأعرف أنني وحيد، وحولي	كهوف من الروم حمر المقل
وأنني على نصف رأسي أطيّر	إلى الحنف، والقتل يمشي المهل ^(٤١)

يخوض البردوني صراعا مع السلطة وصراعاته الأولى والأهم تبدأ مع السلطة أساسا على اختلاف أشكالها، البردوني صاحب ثأر مع الإمام أحمد حميد الدين حاكم اليمن الذي استعمل القوة مع الجنوبيين في اليمن، يقول له مخاطبا له مباشرة وعلى مسمعه:

لا، لم ينم ثأر الجنوب وجرحه
كأنار يُبرق في القلوب ويُرعّد

لا، لم ينم شعب يحرق صدره جُرْحٌ على لعب العذاب مسهّدٌ

شعبٌ يريد ولا ينال كأنه مما يكابد في الجحيم مقيّد^(٤٢)

الصراع المضمر داخل هذا النسق من النص ينبني على علاقة متوترة مع السلطة الحاكمة، والشعر منبر لمثل هذه العلاقات، فالصراع في هذا المشهد متعدد الأوجه والأسباب والمآلات.

ومن الصعب تحديد الطرف الآخر المصارع في شعر البردوني، فنحن وإن علمنا أن البردوني طرفاً في هذا الصراع وعرفنا ماهيته إلا أنه من الرج بالغيب أن نتيقن الطرف الآخر المصارع، قد يكون الزمان، أو الإنسان، أو الحظ، أو الألم، أو الروح، أو القلب...نتلمس صرخة التحولات النفسية الداخلية فيه، ونسمع أسئلته التي تدل على حالة اختناق نفسية يعاني منها الشاعر لكننا لا نتيقن يقينا مصدر الضغط الروحي على إحساس الشاعر:

إلى أين؟ هذا بذاك اشتبه ومن أين يا آخر التجربة

إلى أين؟ أضنى الرصيف المسير وأتعبت الراكب المركبه

وعن كل وجه ينوب القناع وترنو المرايا كمستغربه

إلى أين؟ من أين؟ يدني المتاه بعيداً، ويسبت بعد المقربه

هل السامعون بلا مسمع؟ أو أن المغني بلا موهبه؟^(٤٣)

إن سؤال الأينية في القصيدة ليس سؤال الراكب الذي يمسك طريقاً، بل هو سؤال المقاتل الذي انهزم وأخذ يعاني من تحولات نفسية عميقة في روحه أجلسه مكانه، إنه سؤال من كان يصارع الحياة، أو يصارع الأمل، أو يصارع أي شيء للمضي في الحياة كما ينبغي وليس ما هي بكل عيوبها الاجتماعية

الضاغطة على روحه، المصارعة بين المغني والسامعين وضياح الصوت، إن ضياح الصوت أمام السامعين هو ضياح المعنى هو العبثية المؤذية لمن يغني ويتكلم لجماعة صم لا يسمعون!

يستشعر البردوني جوع أهله لكثرة الحروب والكوارث، واللصوص، هو يرى أن مدينته الجميلة غريبة مخذولة، تعاني نفسيا من الغربة والاغتراب، إنها فتاة غريبة في دار أبيها:

لأنَّ بـلادي الحبيبـه في مُرتَبَاهَا غريبـه

لأنَّهَا وهـي مـلأى بالخصب... غير خصيبه

لأنَّهَا وهـي حبلى بالري عطشى جديـه

* * *

جاعت ومـدت يـديـها إلى الأكف المريبـه

ثم ارتـمت كعـجـوز من قبل بدء الشـبيبـه

تنسى المصـير ويأتـي مصـيرها في حقيـبـه

لأن دار أبيـه لها منـافٍ رهيبـه^(٤)

يعبر هذا المشهد من شعر البردوني عن حالة الصراعات التي تعيشها اليمن، وهي غريبة تعاني الفقر، إنها في وسطها العربي وملاصقة لدول غنية جدا لكنها تعاني الفقر والحرمان، والجوع والأذى التي تمتد لمساعدتها هي أيادٍ مريبة مزيفة تطمع فيها، يصور هذا المشهد صراع المصالح الذي يقوم على مبدأ: الخبز مقابل الهيمنة والسيطرة ومصادرة القرار السياسي والسيادة، إن مصير الدول الجائعة يأتي من خارج البلاد ملفوفا بحقيقة يحمله الدبلوماسيون كي يرسموا مستقبل البلاد، إن هذا الصراع هو صراع

الهيمنة الذي يضغط على شخصية الشاعر ويحولها من الانفتاح على الإنسان باختلاف أجناسه إلى حالة من الصراع والاقتناص والاستغلال وزيادة المعاناة.

لا يمكن أن يكون للصراع في البنية النسقية المضمرة داخل الخطاب الاجتماعي في شعر البردوني إلا أمران من اثنين: الصراع مع الجوع والفر، والصراع لأجل الوطن، إن شعر البردوني يحتوي على الأمرين معاً، فإن كان الصراع مع الجوع والفقر غير معلوم الطرف الآخر فيه، فإن الصراع مع المغتصب والمحتل الذي يطمع في البلاد معلوم، فالطامعون والمستعمرون من ملة واحدة لا يفترون، والهـم الجمعي وتحريض الناس على الثورة من مهمة المثقف، ويتحول الموقف من التحريض إلى الثورة، ومن الثورة إلى مساءلة الوجود عن الحياة والموت، وعن الهوية والوطن، وعن النفي والعودة، وعن حق الإنسان في أن يكون إنساناً حراً يحيا في بلاده بلا سجون، وبلا قيود، وبلا أغلال^(٤٥)، إن التحريض وشذ العـم في سبيل علياء الوطن من أرقى أشكال الصراعات التي يمكن أن يعيشها الإنسان، يقول البردوني:

أفق وانطلق كالشعاع الندي وفجر من الليل فجر الغد

وثب يا بن أمي وثوب القضا على كل طاغ ومستعبد

وحطم إلهية الظالمين وسيطرة الغاضب المفسد^(٤٦)

إن الشاعر يعلن الصراع والثورة ويحرض الشباب عليها، ضد الطغاة، والمعتدين والخونة، إنه ينادي ابن أمه، وهو كل إنسان حر شريف يريد أن يحرك الجماعة وينهض بها إلى الأمام، فالصراع هنا تمثل على شكل ثورة ضد الظلم.

لا يرتبط الصراع في شعر البردوني بالوضع الجغرافي أو القومي الشخصي بل يمتد إلى فلسطين ليعبر عن موقفه الرفض، وإدراكه أبعاد الصراع الصهيوني الفلسطيني، يريد لها حامية الوطيس إما تحرقهم أو تحرقنا:

يا أخي يا ابن الفدى فيم التماذي وفلسطين تنادي وتنادي؟

ضجت المعركة الحمرا.. فقم: نلتهب.. فالنور من نار الجهاد
ودعا داعي الفدى فلنحترق في الوغى، أو يحترق فيها الأعادي
يا أخي يا ابن فلسطين التي لم تزل تدعوك من خلف الحداد
عد إليها، لا تقل: لم يقترب يوم عودي قل: أنا "يوم المعاد"
قل: لإسرائيل يا حلم الكرى زعزعت عودتنا حلم الرقاد^(٤٧)

يفصح النسق المضمّر في خطاب الأبيات السابقة عن نسق الصراع من أجل الأرض والوجود
فالصراع صراع هوية يجعل من الإنسان هو أرضه وأرضه هو نفسه دون تفرقة^(٤٨).

وقد يصل الصراع عند البردوني إلى أوجه فيستنفر روحه، ويُشعل جذوة التحدي عنده وعند غيره من
الناس، متحديا المستبد الطامع والذي يحكم البلاد بالحديد والنار ويتسلط على شعبه:

هَدِّدُونَا بِالْقَيْدِ أَوْ بِالسِّلَاحِ وَاهْدُرُوا بِالزَّيْرِ أَوْ بِالنَّبَاحِ
وَكُلُّوا جَوْعَنَا وَسَيِّرُوا عَلَى أَشْـ لَائِنَا الْحَمْرَ، كَالْخِيُولِ... الْجَمَاحِ
وَاقْرَعُوا فَوْقَنَا الطَّبُولَ وَغَطُّوا خَزَيْكُم بِالتَّصْنَعِ الْفُضَّاحِ
هَدِّدُونَا لَنْ يَنْثْنِي الزَّحْفُ حَتَّى يَزْحَفُ الْفَجْرُ مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي
قَسْماً لَنْ نَعُودَ حَتَّى تَرَانَا رَايَةَ النُّصْرِ فِي النَّهَارِ الضَّاحِي^(٤٩)

يظهر من ذلك أن الصراع في النسقية المضمرة لشعر البردوني هو صراع من أجل الوطن، فالوطن والشعب أو المجتمع عموماً هو محور صراعات البردوني، فوقف في صراعه ضد اليهود واحتلال فلسطين كما وقف في صراعاته ضد الحاكم المتسلط وضد الفقر والعوز والتخلف والحالة السيئة التي تعيشها اليمن.

المطلب الثاني: الحياة والموت

الحياة والموت من الفلسفات القديمة في الشعر، والصراع بينهما أزلّي إذ يسعى الإنسان بكل طاقته إلى الحياة ويخاف من الموت، ما جعله في سعي دائم للحفاظ على حياته، فالموت فقد يحاصر الإنسان في كل زمان ومكان ولا مفر منه^(٥٠) وعوّض هذا الإحساس بالفقد بتعظيم الحياة والسعي إلى جعلها أفضل على كافة المقاييس، مع ترافق الإحساس بالحياة والموت في خلد الإنسان وتفكيره على الدوام، ما يجعل كلا من الموت والحياة أمراً مركزياً في النسق الاجتماعي والثقافي.

إن مركزية النسق الثقافي في مشهد الحياة والموت عند البردوني ينطلق من إحساسه العميق بالنصر على الموت والفناء، فالمقياس عنده ليس الشهيقة والزفير كعلامة على الحياة، كما أن انقطاعهما ليس كافياً ليموت الإنسان؛ لأن البردوني نذر نفسه لمجتمعه وحمل همومه ويبحث عن النجاح والغد المشرق، هو يرى أن الحياة في النجاح والموت والفناء في الفشل وفي الخنوع، فحوّل الموت والفناء من أمر مخوّف إلى قيمة جمالية، "إن الموت الجمالي الذي يؤسسه الشاعر في وعيه ويقدمه في شعره من خلال خطاب ذاته لذوات الآخرين يريد أن يصل إلى نقطة تحفز استباق الموت ومواجهته بالوجود للحياة وحمايتها والتمسك بما فيها من قيم جمالية ظاهرة أم مخفية حسية كانت أم روحية"^(٥١)، أما الطاغية الذي لا يفهم إلا القوة فإن الفناء والتلاشي والموت هو مصيره المحتم أمام قوة النجاح والحياة الجارفة:

في سبيل الفجر ما لاقيت في رحلة التيه وما سوف ألاقي

سوف يفنى كل قيد وقوى كل سفاح، وعطر الجرح باقي

سوف تهدي نار جرحي إخواني وأعير الأنجم الوسنى احتراقي^(٥٢)

يرسم البردوني الإحساس بالحياة والموت باستعمال كلمة (سوف) التي تشير إلى لحظة العبور من الحياة إلى الموت، وكيف يمكن أن تكون الحياة بعد الموت ما يدل على ثقته المطلقة بنفسه وهو يقارع الظلم والسفاحين والطغاة.

يتحول مشهد الموت عند البردوني إلى نوع من إحقاق الحق وكشف المستور، هو يستعمل لحظة الموت ليجرد الإنسان المغتصب من إنسانيته، فالقذيفة التي تحول المكان إلى غبار وشظايا وزجاج متطاير هي قذيفة موجهة من إنسان إلى أخيه الإنسان ليقته:

لم يعد من يجيء، جاءت سقوف فوق أخرى، وإِ أتى فوق أوهى

كان يستفسر الغبار الشظايا: المرايا أو الجراحات أزهى؟

أي صنفي خمار الموت أرقى؟ الأغاني أو السكاكين أشهى؟

ينثني، يقبل الزحام، أيدي أي وجهيه، أي ظهريه أبهى؟^(٥٣)

في هذا المشهد يبدو أن الموت القادم مع القذائف والشظايا ضعيفا أمام إصرار الإنسان على البقاء، إذ ينقل لنا الشاعر مشهد الدمار وامتزاج الغبار مع الشظايا مع السقوف المتهاوية، إن فلسفة الموت عند البردوني مرتبطة بالبقاء هو لا يراه مصدرا للفناء، بل هو مرحلة تنتهي فاتحة لمرحلة ثانية:

فقد أصبح الموت يا بنت مصر على قبضة الموت أقوى امتناع

فمن لم يمت كي تجد الحياة يمت مطمئنا لكي لا يباع

لأن الممات التجاري يجيء من الضيق، كي يستزيد اتساع^(٥٤)

فإنسان في شعر البردوني في فلسفة الحياة والموت مرهون بين الموت قتيلاً وبين الموت التجاري في البيع والشراء، في ذلك إشارة إلى الحياة العبيثية التي يعيشها الإنسان فالموت المحتم مرهون بالموت قتلاً أو بالموت أثناء الصفقات السياسية والتحالفات التي تقل الناس.

ولا يساوم البردوني على موت يبعث له العز والفخار والحالة النفسية التي تنتابه أمام الأهوال التي فيها عزته وكرامته هي حالة التحدي والإصرار والمقاومة والوقوف في وجه الظلم، فالموت عنده مرحب وهو بهذه الحالة:

لهذا أغامر، أبـدو غريباً على العرف كالمولد المرتجل

وأعرف كيف يرى الهول من على الموت من كل ثقب دخل

وأعلم أن جزاء الخطار كثير كثير وأنني أقل

ولكن أموت، لأندي جذوراً وأمتد بنأ، كروماً، جبل^(٥٥)

البردوني لا يؤمن بالفناء للتائرين، يرى أن الثائر الذي يقدم نفسه رخيصة في سبيل المجد والوطن هو ثائر لا يذهب سدى، بل سيظهر في الحقول والمزارع والحياة الجديدة، فمصطلح الموت عنده مصطلح مركب مع الحياة، في اللحظة التي يموت فيها يحيى من جديد في نزعة فلسفية عميقة فأصبح الشاعر الميت الحي جاعلاً الذات تستحضر موتها وتحياه بدلاً من انتظار حضوره إليها أي تبادل النفس وتكون قيمتها الجمالية في الحياة الممزوجة بالموت وخطره^(٥٦).

وتعد الثورة والنفرة ضد الظلم والطغيان أحد وجوه الحياة في شعر البردوني، فهو يرى أن الثورة سبيل نجاة، ومصدر حياة:

فسر يا ابن أمي إلى غاية سماوية العهد والمعهد

إلى الدجى يا أخي وأنـدفع إلى ملتقى النور والسؤدد

وغامر ولا تحذرن الممات فيغري بك الحذر المعتدي
ولاقي الردى ساخرا بالردى ومات في العلا موت مستشهد
فمن لم يمت في الجهاد النبيل يمت راغم الأنف في المرقد^(٥٧)

فالحياة عنده متعددة الأشكال لكن الموت من حيث النهايات هو موت واحد، يطالب الناس والشعب بالموت شجاعة وفي سبيل المجد والحصول على الحقوق.

ونجد في شعر البردوني تعبيرات كثيرة عن واقع الحياة المعيش بعيدا عن مسألة الثورة والنضال السياسي والمسلح والقتل، فهو يرى أن الحياة قاسية عليه وعلى الناس، عندما تصبح الحياة ثقيلة على الإنسان ربما يختار الموت ويتمناه، وربما ينتحر فيعبر البردوني عن فلسفة الحياة المرة والموت الرحيم بقصيدة (المنتحر) التي يقول فيها:

لفظ الروح فاطمأنت ضلوعه وأنظفا شوقه ونام ولوعه
وقع المتعب الكئيب على الموت فماذا جرى وكيف وقوعه؟
جفت الكأس في يديه وأشتى فيه وادي المنى ومات ربيع^(٥٨)

يتحول لفظ الروح وخروجها من الجسد راحة للضلوع وللنفس وبالمقابل نكتشف ثقل الحياة التي كان يعاني منها هذا الإنسان ليتحول الموت ولفظ الروح راحة له، وترى الفلسفة الحديثة أن الإنسان الذي يزداد وعيه في الحياة يفضل الموت على البقاء حيا، فأشد البشر معاناة للألم هو العبقرى الموهوب، فتكون الراحة في الموت فقط^(٥٩)، وهذه الفلسفة ليست مطلقة فالإنسان بدل أن يفضل الموت على الحياة ينبغي عليه أن يبحث عن أسباب المعاناة ويحاول التغلب عليها.

يوازي البردوني بين الحياة والموت ويرى أن الموت أفضل، وأن القبر أفضل مكان أمام ظلم الحياة:

لا تسل ذلك الفتى: كيف صاح الجرح فيه؟ وكيف صم سميعة

كيف أسرار قلبه أي سر كان يطوي وأي سر يذيعه؟

همّ بالموت والظنون تواري حوله الخوف تارة وتشيعه^(٦٠)

يظهر في هذا المشهد من القصيدة وهو مشهد الرحيل أهمية الموت بالنسبة لذلك الفتى، وإبداع البردوني في نقل ذلك شعرا كاشفا عن النسق المضمّر للعلاقة مع الحياة التي أصبحت حملا ثقيلا على الفتى.

فالأمر من هذه الناحية مرتبط بالخلاص على عكس ما هي عليه الناس من التشبث بالحياة، والبردوني نفسه كان يختار الحياة عبر الموت لكن في سبيل الوطن والمبدأ والدين، أمّا مع هذا الفتى فالشقاء والانكسار سببان كافيان لاختيار الموت، نتلمس في النسق المضمّر لهذا الخطاب الحالة الشعبية من سوء الأوضاع والانكسارات التي يعاني منها الناس فالحالة ليست فردية والدليل أنها هزّت الشاعر ودفعته لقول قصيدته، فالأوضاع السيئة للناس منتشرة وكثيرة جدا ولا تدفع الناس كلهم للانتحار وهذا هو الخطاب المضمّر لهذه القصيدة، والانتصار عليه يكون بإنهاء المأساة حتى لو بالموت الذي يصفه البردوني بأنه أخضر:

يا لظلم الحياة ما أعدل القبر تساوى فيه الوجود جميعه!

لا تلم ذلك الفتى حين أرى نفسه فالشقا الطويل شفيعه

وانتحرار المضيم أخضر للضيم وأجدى من أن يطول خضوعه

مزق العمر حين ضيعه العمر وحُفّق حفظ الفتى ما يُضيّعه

كم شوت روحه الضلوع ويوماً لفظ الروح فاطمأنت ضلوعه^(١١)

الأبيات السابقة لوحة من لوحات العلاقة المحتملة مع الموت إن كانت الحياة ثقيلة على الإنسان، حيث يتحول إنهاؤها هدفاً بحد ذاته في اللحظة التي يكون منطقياً أن يسعى الإنسان للحفاظ عليها. يظهر مما سبق أن الحياة والموت من القضايا المطروقة في شعر البردوني وهي ممزوجة في أغلب الأحوال بالثورة وحب الوطن والارتقاء بالإنسان على المستويات كافة، فالحياة عنده ما ارتبطت بالعزة والكرامة والدفاع عن الحقوق، والموت عنده واحد إلا أن بعض الموت تتبعث منه حياة أبدية وبعض الموت موت واندثار دون أي قيمة تذكر.

النتائج

انتهت هذه الدراسة إلى النهوض بتجلية ظاهرة المضمحل الاجتماعي والنفسي في شعر البردوني، والذي عبّر عن الجماعة ومشاكل المجتمع المتمثلة في الكينونة الذاتية (الأنا) وما يقابلها (الآخر) في جملة من المعتقدات والتقاليد والخيالات والأفكار، حيث ظهرت هذه الثنائية الضدية بشكلٍ لافتٍ في جُلِّ قصائده تقريباً

وفي جانب الأفكار والعلاقات التي كان لها مدلولات اجتماعية عميقة في الشخصية اليمنية عموماً وعند البردوني خصوصاً فانعكس ذلك على شعره في مواضيع عديدة مثل: الوطن، والمعتقدات الشخصية والجمعية، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم، وموقفه من الاحتلال و أعداء البلاد والحكام، ودور الشباب في المجتمع

أما من حيث الأنساق النفسية في شعره فقد عبّر عن حالاته النفسية ولواعج شعوره المتأجج الذي ينعكس على مجتمعه وذاته ويقارن بين وضعه الشخصي ووضع وطنه والعالم المجاور الذي يتمتع بالأمان والاستقرار فتظهر الصراعات النفسية، فيتحول الصراع في داخله إلى محرك للشعر، ويأخذ من ثيمة الموت والحياة سبيلاً للعبور إلى الشعور النفسي والشعور الجمعي، فالبردوني في تحولاته النفسية يشخص أمام المتلقي بكل شفافية روحية، ووضوح لا مثيل له متحدياً اللغة الشعرية التي تتوارى وراء الأنساق النظرية: النقد الثقافي.

١. الهوية والسرد، دراسات في النظرية والنقد الثقافي، كاظم نادر، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ٢٠١٦م، ص٩.
٢. جدل النسق الثقافي، الطاهر مرابي، ص٦٦.
٣. ينظر: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكير، إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٣م، ص٩٥.
٤. تمارين في النقد الفني، صلاح قنسوة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص١١.
٥. ينظر: موسوعة علوم اللغة العربية، الأدب العربي، عبد الله خضر حمد، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٢٣م، ص٥٥٢.
٦. الإسلام والغرب (الأنا والآخر)، محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢١.
٧. صورة الآخر في رواية كيف توضع من الذنبه دون أن تعضك؟ لعمارة لخص، بلقاسم زورقا، مجلة الخطاب التواصل، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت- مخبر الخطاب التواصل، العدد٧، ٢٠٢٠م، ص٣٥٩.
٨. الرواية الخليجية قراءة في الأنساق الثقافية، فارس البيل، دار الأكاديميون للنشر، ط١، ٢٠١٦م، ص١٦٠.
٩. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٦٩.
١٠. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص١٨٨.
١١. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٢٥٠.
١٢. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٦٤.
١٣. فيزياء الرواية، وموسيقى الفلسفة، حوارات مختارة من روايات وروائيين، لطيفة الدليمي، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠١٦م، ص٤١٥.
١٤. الذات عينها كآخر، بول ريكور، ترجمة: جورج زيناتي، مركز المنظمة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص٣٦.
١٥. المرجعية في الشعر العربي الحديث، قراءات نقدية، شفيق طه النوباني، دار البيروني للتوزيع والنشر، ط١، ٢٠٢٣م، ص٧.
١٦. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص٧٩٧.
١٧. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٥٤١-٥٤٠.
١٨. ينظر: الهوية مفاهيم ورهانات، مقاربة ثقافية لجذلية الأنا والآخر في السرد العربي، نصر الدين بن غنيسة، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٢٠م، ص٢١.
١٩. نظريات النقد الثقافي في التأصيل المنهجي والإجرائ التطبيقية عند الغدامي، أحمد أنيس الحسون، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٢٠م، ص١١٦.
٢٠. الأعمال الكاملة، البردوني، ص٦٤.
٢١. التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، أحمد ياسين السليمان، دبط، دار الزمان، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٩٨.
٢٢. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص١٩٣.
٢٣. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص١٢٤٩.
٢٤. ينظر: السلطة الثقافية والسلطة السياسية، علي أومليل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٩-١٠.
٢٥. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص١٢٥٠.
٢٦. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٢٤٩-١٤٨.
٢٧. المثقف والسلطة، إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠٢٢م، ص٥٩.

٢٨. القيم الحلقية في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان علي، ومجموعة مؤلفين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٠٩.
٢٩. الرواء هو الماء الكثير.
٣٠. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص١٨١.
٣١. الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهرية، جون بأول سارتر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، منشورات الآداب، بيروت، ط١، ١٩٦٦م، ص٥٧١.
٣٢. دراسات نقدية في الشعر والنثر، خالد حوير الشمس، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ط١، ٢٠٢١م، ص٣٨.
٣٣. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص٨١٥.
٣٤. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٦١٧.
٣٥. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٢٤٨.
٣٦. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص١٤٩٢.
٣٧. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص١٩٢.
٣٨. نظريات النقد الثقافي، الحسون، ص٧٢.
٣٩. ينظر: النقد الأدبي، محمد عبد المطلب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٩٠.
٤٠. ينظر: تحليل الخطاب: النظرية والمنهج، ماريان بورغنسن، ولويز فيليبس، ترجمة: شوقي بوعناني، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ط١، ٢٠١٩م، ص٤٧.
- ٤١.
٤٢. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٢٤٦.
٤٣. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص٧٩١.
٤٤. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٥٦٤.
٤٥. حاضر الشعر وتحولات القصيدة، إبراهيم خليل، الآن ناشرون، عمان، ط١، ٢٠١٥م، ص٢٥٠.
٤٦. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص١٩٣.
٤٧. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٣٢٠.
٤٨. الإسلام والغرب (الأنا والآخر)، محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢١.
٤٩. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٣٥٩.
٥٠. تراجم الموت في الشعر العربي المعاصر، عبد الناصر هلال، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٥.
٥١. القيم الجمالية في الشعر الأندلسي، آزاد محمد الباجلاني، دار غيداء، الأردن، ط١، ٢٠١٣م، ص٢٢٨.
٥٢. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٣٦٣.
٥٣. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص٨٠٨.
٥٤. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٤٠١.
٥٥. الأعمال الكاملة، البردوني، ج٢، ص٨٢٨.
٥٦. الحياة والموت في شعر عصر الطوائف بالأندلس، فواز أحمد طائي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م، ص١٩٥.
٥٧. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص١٩٤.
٥٨. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٣٢٤.
٥٩. دراسات في المنطق والفلسفة، عماد الدين الجبوري، منشورات (إي-كتب) للنشر والتوزيع، لندن، ط١، ٢٠١٤م، ص٨١.

٦٠. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٣٢٥.

٦١. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٣٢٦.

المصادر والمراجع

١. الإسلام والغرب (الأنا والآخر)، محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
٢. الأعمال الكاملة، البردوني، ج١، ص٢.
٣. التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، أحمد ياسين السليمان، د.ط، دار الزمان، دمشق، ٢٠٠٦م.
٤. تحليل الخطاب: النظرية والمنهج، ماريان بورغنسن، ولويز فيليبس، ترجمة: شوقي بوعناني، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ط١، ٢٠١٩م.
٥. تراجم الموت في الشعر العربي المعاصر، عبد الناصر هلال، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
٦. تمارين في النقد الفني، صلاح قنوسة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
٧. جدل النسق الثقافي، الطاهر مرابي، ص٦٦.
٨. حاضر الشعر وتحولات القصيدة، إبراهيم خليل، الآن ناشرون، عمان، ط١، ٢٠١٥م.
٩. الحياة والموت في شعر عصر الطوائف بالأندلس، فواز أحمد طائي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م.
١٠. دراسات في المنطق والفلسفة، عماد الدين الجبوري، منشورات (إي-كتب) للنشر والتوزيع، لندن، ط١، ٢٠١٤م.
١١. دراسات نقدية في الشعر والنثر، خالد حوير الشمس، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ط١، ٢٠٢١م.
١٢. الذات عينها كآخر، بول ريكور، ترجمة: جورج زيناتي، مركز المنظمة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
١٣. الرواية الخليجية قراءة في الأنساق الثقافية، فارس البيل، دار الأكاديميون للنشر، ط١، ٢٠١٦م.
١٤. السلطة الثقافية والسلطة السياسية، علي أومليل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
١٥. صورة الآخر في رواية كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟ لعمارة لخص، بلقاسم زورقا، مجلة الخطاب التواصل، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت- مخبر الخطاب التواصل، العدد ٧، ٢٠٢٠م.
١٦. فيزياء الرواية، وموسيقى الفلسفة، حوارات مختارة من روايات وروائين، لطيفة الدليمي، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.
١٧. القيم الجمالية في الشعر الأندلسي، آزاد محمد الباجلاني، دار غيداء، الأردن، ط١، ٢٠١٣م.
١٨. القيم الحلقية في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، سلمى سلمان علي، ومجموعة مؤلفين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
١٩. المثقف والسلطة، إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠٢٢م.
٢٠. المرجعية في الشعر العربي الحديث، قراءات نقدية، شفيق طه النوباني، دار البيروني للتوزيع والنشر، ط١، ٢٠٢٣م.
٢١. موسوعة علوم اللغة العربية، الأدب العربي، عبد الله خضر حمد، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٢٣م.
٢٢. نظريات النقد الثقافي في التأصيل المنهجي والإجرائي التطبيقي عند الغدامي، أحمد أنيس الحسون، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٢٠م.
٢٣. نظريات النقد الثقافي، الحسون.
٢٤. النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكير، إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٥. النقد الأدبي، محمد عبد المطلب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٦. الهوية مفاهيم ورهانات، مقارنة ثقافية لجدلية الأنا والآخر في السرد العربي، نصر الدين بن غنيسة، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٢٠م.

٢٧. الهوية والسرد، دراسات في النظرية والنقد الثقافي، كاظم نادر، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ٢٠١٦م.
٢٨. الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهرانية، جون بأول سارتر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، منشورات الآداب، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.

